مدينة تينمل الموحدية بين التحصين الطبيعي والمحدث

الأستاذ. مصطفى سالم

قسم التاريخ والآثار/ جامعة باتنة

The City of Tainmil The Unitarian Between the Natural Fortification and the Modern One

Prof. Mustafa Salim

Dept. of History and Archeology/ University of Batina

mostaphasalem1977@gmail.com

Abstract

The emergence of the founder of the Unitarian project –Muhammad Bin Tumert- great role in the rise of Tainmil during the sixth century for Hijra/ twelfth century A.D. according to their name, it was a gathering of tribes. This name is mentioned in the historical references in association with the name of Almahdi. The fortification in this city is considered a military and architectural structure has direct connection to natural, human, economic and political aspects of the city.

مقدمة:

كان لظهور مؤسس المشروع الموحدي – محمد بن تومرت[1] – دور كبير في بروز إسم تينمل[2] على مسرح الإحداث خلال القرن السادس هجري الثاني عشر ميلادي ورغم ماكان للمكان قبل قيام الموحدين من قدسية. تبعا للدلالة الاسم بعتباره مجمع القبائل لعقد الواثقة والعهود فيما بينها فإن ورود هذا الاسم في مصادر التاريخية بكثافة راجع لارتباطه باسم المهدي وسنحاول النظر إلى التحصين الموحدي في هذه المدينة باعتباره بنية عسكرية وعمرانية هامة له علاقة مباشرة بالمجال الطبيعي والبشري والاقتصادي وبالسلطة السياسية فهل كان اختيار موضع بناء مدينة تينمل خاضعا لشروط الدفاع والتامين؟ وهل ساعد ذلك على خلق مدينة عسكرية محصنة بمكونات أساسية لصد جميع أشكال الاختراق؟.

أولا /-التحصين الطبيعي:

يقول ابن خلدون فيها يجب مراعاته في أوضاع المدن: ((...المدن قرار تتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة.... وجب ا ن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع...))[3]. وإنّ مسألة تطور دفع المضار ارتبط بتطور الفكر العسكري الإنساني، فمع نشوب الحروب أصبحت الحاجة ضرورية لاستناد أسس تتضمن من المجموعة البشرية التي تتعرض للهجمات فعدت مسألة حتمية في تشييد منشآت عسكرية، تصمد أمام ضربات واختراقات المهاجمين وتوفير مصادر التموين في حالة الحصار، لذلك كان للعوامل الجغرافية والبشرية دورا في الانتصار بالاعتماد على طبوغرافية الموقع التي تبقى أكثر العناصر ثباتا.

إن اختيار ابن تومرت لمدينة تينمل الواقعة على الضفة اليسرى لوادي النفيس،ينم عن إستراتيجية الدفاع المحصن به من حماية طبيعية كبيرة واستعصاء الوصول إليها بسهولة من قبل المرابطين، حيث يصفها صاحب الحلل الموشية بقوله: ((اذ لا يعلم(...) أحصن من تينمل لا يدخلها الفارس الا من شرقها وهو الطريق إليها من مراكش بطريق اوسع مافيه ان يمشي عليه الفارس وحده، او ضيقة ان ينزل على فرسه خوفا من سقوطه، والطريق مصنوعة من نفس الجبل، تحت راكبها الحافات وفيها مواضع مصنوعة من الخشب اذا ازيلت منها خشبة لم يمر عليها احد...)[4]. كما يصفها الادريسي المعاصر لابن تومرت بقوله: (...انه كان يكفي وقوف اربعة رجال بشكل متواز ليجعلوا اي مرور منه متعذرا...))[5].

وبسبب هذا الخصوصية يسميه باسيط وتيراس في مؤلفهما المشتركة بالطريق الشيطاني[6]. ونفهم من كل هذا ان الوصول الى تينمل على ظهر الخيول كان امرا متعذرا من جهة الشمال والجنوب، اما من جهتي الغرب والشرق فكان صعبا

جدا وذلك لان الفارس كان بمقدوره ان يمر من جهة الغرب –طريق مراكش – ببعض الممرات المتسعة نسبيا دون كبير صعوبة، لكن عند الوصولا الى الممرات الضيعة كان يتوجب عليه النزول من صهر جواده تفاديا للسقوط،اما من جهة الشرق فإن الفارس اذا مر بحصانه كان يجد امامه انكسارا جبليا في الاعلى وهو في الاسفل بينهما مشيد بالقطع الخشبية،يكفي حذف قطعة واحدة منه لتصبح عملية المرور مستحيلة.

– ان الموقع الذي اختاره ابن تومرت عام (518هـ–1124م)، كان رهن الاطار السياسي. واستمراره في تطور حركته الدينية والسياسية الجديدة، حيث قضى ماتبقى من سنة 518 هـ وسنة 519هـ –1124 م في تنظيم عاصمته الجديدة، وقاعدة عملياتية العسكرية في وقت قصير حصر اهتمامة بمنطقة الاطلس الكبير، بحيث اصبح في مركز يمكنه من نشر عقيدته بين قبائل البربر من حوله.[7]

وبالتالي نجد ان ابن تومرت طبق شروط الموقع حول الإستراتيجية كما طبق شروط الموضع حول فكرة التكتيك، فالموضع الحربي لتينمل يوفر الحد الاقصى من الامكانيات ومناورات الهجومية والدفاع، اي الحد الاقصى من الحماية والادنى من المخاطرة. وربما كان الموضع الاكثر صعبة بالنسبة للوظيفة الحربية منه في اي وظيفة اخرى،بل وربما كانت هذه الوظيفة هي الوحيدة بين الوظائف التي يعادل فيها موضع الموقع من حيث اهميته.

ان مدينة تينمل وافقت الشروط التي جاء بها كل من ابن زرع[8]، وابن خلدون[9] وابن القاضي[10] فيما بعد والتي لابد منها لانشاء المدينة وهي مجموعة من العناصر المرتبطة بتحقيق شرط الدفاع، وتامين الموقع واختيار المجال بناءا على دفع المضار وجلب المنافع، وتسهيل المرافق وتامين عناصر الحكم التي هي: الجند والمال والعمارة والرعية وعليه فإن ابن تومرت كان يستحضر في سياسته الدفاعية منطق الموقع باعتماده على استغلال المجال المرتفع، وخلق من تينمل مدينة عسكرية محصنة بمكونات اساسية لصد جميع اشكال الاختراق فقد كان المرابطون يتجنبون المباداة بالهجوم والسبب في ذلك يرجع الى طبيعة تكوين جيشهم الذي كان معظمه من الفرسان وكما كانت أودية جبال الاطلسي هي في معظمها، ضيقة وغير مستوية فإنها لم تكن ارضا صالحة لمناورات الفرسان، وكان من السهل سد الشعاب في الجبال، وحتى ولو بقيت مفتوحة، فان ذلك لايسمح للفرسان الا التقدم ببطئ مما يعرضهم للمزيد من المخاطر. [11]

وقد جرت محاولات لدخول الجبال الا انها انتهت بفشل ذريع، لقد راعى ابن تومرت في تأسيس مدينة تينمل الموقع الطبوغرافي الدفاعي الطبيعي ومن حسن الموضع، والنهر الجاري، والمحراث الطيب، والمحطب القريب، واستحداث التحصين من اسوار وابراج وابواب، حيث عبر الحكماء حين قالوا: ((...الملك بناء والجند اساسه فاذا قوى الاساس دام البناء، وان ضعف الاساس انهار البناء..))[12].

ثانيا /– التحصين المحدث:

بعد التحصين الطبيعي للمدينة تاتي اهمية التحصين المحدث وماله من دور في الدفاع عنها، ولذا اعتبر بناء الاسوار والابراج والابواب والقلاع من البناء الواجب، والمنشات الضرورية وقد اعتبره الاسلام من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض، وهي من مقاصد الشريعة الاسلامية في حين اعتبره الجغرافيون وكتاب المسالك من سيمات المدينة بكل ماللكلمة من معنى، وقد اعتبر السور من الاشياء الضرورية في المدينة للتصدي هجمات العدو ومقاومة الحصار طويل الامد.

وقد بدات اسوار الموحدين الاولى بهذه المدينة –تينمل – وكانت مترسمة في بدايتها هذه خطو العمارة المرابطية، بحيث اكتفى ابن تومرت بتشيد سورين احدهما في جهة الشرق والاخر في جهة الغرب لم يتجاوز مساحة المجال الذي يفصل بينهما كيلومترا واحدامن الشرق الى الغرب،وما بين خمسمائة وستمائة متر من الشمال الى الجنوب[13].

وهذا لكون المدينة لم تكن في حاجة الى تحصينات اضافية،نظرا لتمتعها بحماية طبيعية كما اشرنا اليه سابقا.

و كان السور الممتد على المنطقة السفلى من النهر سميكا جدا وبه مجموعة من الابراج،وبهذا السور كان يوجد الباب الوحيد الذي يسمح بدخول المدينة.

اما السور الثاني الموجود بأعلى النهر – خلف المسجد – فكان اقل سمكا على اعتبار أن الهجوم الذي يمكن ان يأتي من جهة السوس عبر فج – تيزي ن تاست – لن يكون بنفس الخطورة. [14]

وبعد ان سور ابن تومرت الاجزاء السفلى من جهتي الشرق والغرب، والتي يمكن منهما دون غيرهما ان يمر الفارس كما مر بنا،مد السور الى قمة الجبل حيث وضع برجا يمكن من خلاله مراقبة كل مايوجد خلف الاسوار[15]، وقد قضى ابن تومرت كل سنة 519هـ/1125–1126م،في تحصين تينمل،وتشيد السكن لكل اتباعه الذين جاءوا للاقامة بها.

نستطيع القول بان اسوار الموحدين بتينمل قد نسجت على منوال الاساليب المرابطية، من حيث البناء بقطع الحجر الكبير غير المتظمة اي غير المنجورة،تتخللها قطع مستوية من حين لاخر.

تنتظم بها سطوح المداميك [16]،وقد تبقت اثار قليلة من سور تينمل الذي بناه ابن تومرت، ثم اعاد بناؤه عبد المؤمن بن علي سنة 540هـ[17]، وقد كشفت الدراسات عن هندسة السور المستقيمة التي تدعمها الابراج على مسافات محددة، كما ابانت عن مواد بناءه والمتمثل في استعمال الحجر غير المنجور بارتفاع قامة الرجل، تبدا فوقه التابية الى نهاية علو السور المطلوب.

ومن هنا يمكن لمس التطور في وسائل ومواد البناء التي ابتكرها الموحدين، وهي تكشف عن نواياهم العمرانية ورغبتهم الملحة في سرعة الانجاز والاقتصاد في النفقات مع الصلابة التي تقاوم الزمن.

وقد عمد خليفة ابن تومرت عبد المؤمن بن علي على نهج سياسية دفاعية عبرت عن حسن استراتيجي،ووعي دفاعي فقد تم له في مابعد بناء حصن بجبل طارق وجعله قاعدة امامية للدفاع عن بلاد المغرب الاسلامي، وتشيد رباط تازة سنة 529هـ ليخصص كقلعة عسكرية مهمة ورباط تيط.[18]

وهكذا استمرت تلك الاتجاهات الجديدة طوال عصر الموحدين، وحلة التابية[19] محل الحجر والابراج المضلعة محل الابراج المستديرة.

اما الحديث عن ابراج المراقبة فنجد ان ابن تومرت، ولمزيد من الاحتطيات قام بتشييد قلعة بقمة المنحدر الذي يراقب القرية او المدينة، وكان كل الوادي اطلق عليه اسم تيضاف – برج المراقبة – حيث وضع عليها خفيرا مهمته الانذار ضد كل هجوم ايا كان مصدره،لكون البرج يشرف على اكبر مساحة ممكنة لاستطلاع العدو.[20]

ويعتبر من بين البناءات الدفاعية التي تزود بها أسوار المدن وقد يكون مرتبطا بغيره من البنايات كالأسوار والأبواب كما هو موجود في السور الممتد على المنطقة السفلى من النهر أو منعزلة عنها كما هو الشأن في قمة المنحدر الذي يراقب القرية.

تجدر الإشارة على ان الموحدين قد اتخذوا الابراج الصغيرة الموزعة بصفة منتظمة داخل اسوار تينمل،والأبراج المحصنة من جانب الباب الوحيد – باب ايغلي– الكبير والتي يكون يكون حجمها كبيرا نظرا لما تتوفر عليه من مساكن وممرات للجند،وقد اتخذت هذه الابراج شكلا مستديرا. كما اعتمد في بنائها على الحجر بشكله الاول غير المنجور والثاني المنجور فيمابعد، ثم حلت الابراج المضلعة محل الابراج المستديرة وزادت العناية بابراز الابواب.[21]

وعلى الرغم من اتجاه الموحدين نحو بناء الاسوار بالتابية فان ابوابهم حظيت دائما باستعمال الحجارة المنجورة، منتظمة الشكل.

اما عن الأبواب في مدينة تينمل فيمكننا ان نصيغ افكارا حول شكلها الاول، حيث نج احتفاظ سور المدينة الغربي بنموذج فريد، فتح فيه باب –ايغلي – والذي يعتبر من العناصر الاساسية، فهو الذي يوصل مابين داخل المدينة وخارجها وقد استفاد المهندس المعماري الموحدي من تخطيط الابواب المرابطية.

التي شيدت فوق تخطيط ذي انعطافات مرفقية لتحقيق الهدف الدفاعي الذي لم يكن كافيا في تصميم الابواب في فترات قبلها.

وانطلاقا من هذه الفكرة وتكرار مراحل المعوقات والعقبات في طريق المهاجمين، وبهذا ابتكروا طريقة التخطيط ذي المنعطفات المرفقية المزدوجة الذي نراه في ميولة مباني الموحدين الفخمة فيما بعد بمدينة رباط الفتح، وباب الاوداية، وباب الرواح بالرباط كما ان هذه الابواب تعطي بعدا آخر لا يقتصر فقط على دورها الدفاعي، بل يتعداه ليصبح رمزا ودلالة على عظمة هذه الامبراطورية الناشئة.[22]

على الرغم من أن العمارة الموحدية في تينمل جاءت في مواضع محكمة المواضع في حلة جميلة تكاد مختلف المصادر والكتب التي تتطرق الى المعمار الموحدي الى الاتفاق على

شيئ واحد وهو أن الموحذين اقلوا الى حد كبير من الزخارف، حتى انحصرت في أشكال رئيسية حاسمة الخطوط بينة المعالم ' فمسجد تينمل الذي يعتبر أول معالمهم المعمارية، يشكل بداية نشأة الأسلوب الموحدي، فمحراب تينمل أحدث الروائع الزخرفية للمذهب الفني الاسلامي الجديد بالمغرب الاسلامي، بحيث أصبحت الزخارف تشكل شبكة واحدة تترك كثيرا من الفضائات الفارغة، كي تتفادى الزخرفة التومرتية، التراكم وتبدوا التفاصيل واضحة والخطوط متقنة، وهذا الاسلوب عمم على جميع المنشات المعمارية بتينمل محل الدراسة.

كما ان استخدام الالوان فقد تم تفاديه، وتعدده فالزخرفة تينمل نموذج الزخارف الموحدية الاولى، على سبيل المثال منقوشة على جص صلب ذي لون اصفر بلطف من حدة النور وبلون الضلال، غير ان الامر يختلف في الزخرفة الخارجية، اكثر الصناع من الالوان يفضل استعمال الزليج، وكاننا بهم يرفضون التلاوين التي تستعمل فيها العناصر الطبيعية، ليجعلوا من الزليج المجال للالوان[23]

ويمكن اعتبار الفن الموحدي مرحلة ازدهار وتأويل وفي الآن نفسه بناء جديد للشخصية الزخرفية المعمارية المغربية التي عرفت كيف تعيد صهر المؤثرات المشرقية في نظام يعتمد الصرامة وتلطيف الفورة التزويقية والزخرفية.

الخاتمة:

من خلال ما سبق ذكره يتبين لنا ان الامر لا يتعلق بمدينة عادية بل بمركز إستراتيجي مهم، ينم عن استراتيجية الدفاع المحصن الطبيعي بالدرجة الاولى، فالمنطقة تختص بمنعتها الطبيعية، وبإستعصاء الوصول اليها بسهولة سواء من قبل المرابطين او المتمردين، وبالتالي هي مكان مناسبا لنشر دعوة ابن تومرت بين قبائل المصامدة، وإنجاح مشروعه السياسي فإختياره لهذا الموضع ليس عبثا بل متأصلا وخاضعا لمقاييس معلومة، فهي تجمع بين التحصن والدفاع في آن واحد، وبالتالي تحقيق شرط تعذر التخطي، وتوفير شرط الأمان، وفتح المجال للمواجهة والتخندق، فكان ذلك إستجابة للمفهوم العام لاختيار الموقع الطوبوغرافي في علاقته بالمجال الدفاعي العسكري.

كما حرص ابن تومرت على تحصين تينمل بشكل جيد، وجعلها بمنآى عن الفتن، فقد كانت السيطرة على هذه المدينة والتمكن من استخلاص بيعة اهلها، يعد مؤشرين مهمين له على تمكنه حكم البلاد والعباد، حيث لم يكن ذلك سهلا على الدوام بل كان يأخذ سنين امتدت عاى فترات متقطعة من الحصارات والحروب، فكان الهاجس الاساسي الذي سيطر على تفكير ابن تومرت اذا هو العمل على تقوية النظام الدفاعي للمدينة، عن طريق استحداث سورين، وبرجا للمراقبة في قمة الجبل، واتخاذه للابراج المستديرة على طول السورين، اضافة لفتحه باب ايغلي الذي يعتبر النموذج الاول للابواب الموحدية.

التهميش:

1- ولد ابن تومرت في جنوب المغرب الاقصى في المنحدرات الشمالية لسلسلة جبال الاطلس الداخلية، في مكان يسمى" ايجليز-ن- هرغة " سنة 471 هـ، حول ابن تومرت انظر:البيدق ابو بكر الصنهاجي، المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971،ص 28.

انظر كذلك: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الاندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد تاويت، الجمعية المغربية للتاليف والترجمة والنشر، بيروت، الدار البيضاء، 1985،ص ص 120-135.

2- كتبت في المصادر باشكال مختلفة منها: "تينمل" و"تانمللت" و"تينمال" و"تاملت" و"تنمل" و"تين- ملل".

لمزيد من الاطلاع انظر: مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979،ص ص112-114.

3- عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، المجلد الثاني، تحقيق.أ.م.كاترمير، طبعة باريس، 1858،ص209-210.

4- مؤلف مجهول، المصدر السابق،ص123

5- الادريسي محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق طبعة نابولي،1955،ص ص230-231

6-BASSET ETTERRASSE،SANCTUAIRES ET FORTERESSES ALMOHADS، COLLECTION HESPERIS،2-1.PP PARIS 1932

7- حول عقيدة ابن تومرت، انظر: محمد بن تومرت "المهدي "، اعز ما يطلب، تقديم وتحقيق، عبد الغني ابو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط،1997 ص ص33-40.

8- للمزيد من الاطلاع حول شروط اختيار المدينة انظر: ابن ابي زرع، الانيس المغرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط 1973،ص ص53-54.

9- عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد الثاني ص ص210-211.

10- ابن القاضي احمد، جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام لمدينة فاس، الجزء الاول، الرباط، ص ص50-51.

11-امبروسيو هويثي ميرندا، التاريخ السياسي للامبروطيرية الموحدية، ترجمة، عبد الواحد اكمير، الطبعة الاولى، الدار البيضاء، 2004،ص ص69-70.

12-الطرطوشي ابو بكر محمد، سراج الملوك، تحقيق، فتحي محمد ابو بكر،الجزء الثاني، الدار المصرية اللبنانية، 1994، ص215.

13- مؤلف مجهول، المصدر السابق،ص112.

14-BASSET ET TERRASSE، OP-CIT،P37-38.

15- مؤلف مجهول،المصدر السابق، ص 114.

16-عثمان عثمان اسماعيل،تاريخ العمارة الاسلامية والفنون التطبيقية، الجزء الثالث، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط،1993،ص 113

انظر كذلك: صباح عبد اللطيف مشتت وعبد العزيز احمد الكباب، المداخل في العمارة الاسلامية، منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو-1422هـ/2001ص ص21-27.

17- يتصل نسب عبد المؤمن بن علي بقبيلة كومية التي تعتبر احدى بطون بني فاتن، حيث ولد في قرية صغيرة تسمى((تاجرا)) تقع بالقرب من مدينة (ندرومة)وللاطلاع اكثر حول شخصية حياة ونشاة ونشاط عبد المؤمن، انظر كتاب: الاستاذ الدكتور / صالح بن قربة،عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب، دار موفم للنشر،الجزائر 2011.

18- منير اقصبي،العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، افريقيا الشرق،المغرب،2015ص ص25-26.

19- الطابية le pisé: جاءت الطابية لتعوض الحجر بالنسبة للتحصينات العسكرية ابتداءمن عصر الموحدين، وقد استخدمة بشكل فعال جدا في الاسوار الموحدية التي مازالت توجد اجزاء منها ماثلة بفاس البالي.فاثبتت فعاليتها وجودتها منذئذ، واصبحت تنتشر اكثر فاكثر في كل مدن المغرب الاسلامي، وهي عبارة عن خليط من التراب والحصى والجير والماء، يحضر بنسب متفاوتة على حسب درجة صلابة البناء المنشودة.للمزيد من الاطلاع اكثر انظر marçais(G).larchitecture musulmane d'occident 3D.arts et métiers.paris.1954p305.

انظر كذلك: منير اقصبي،المرجع السابق،ص ص 203-204.

ابن خلدون،المصدر السابق،الجزء الثاني ص ص،372-373.

20- مؤلف مجهول، المصدر السابق،ص 140.

21- marçais(G).op.cit ;309

22- عثمان عثمان اسماعيل،المرجع السابق،ص120.

23- basset et terrasse ;op.cit ;p40 .